

الْحَرِبَةُ نَعَالَةٌ بَخْلُودُ الْفَرَآنِ كَسْتُورٌ الْحَرِبَةُ لِدِينِ الْإِنْسَانِيَّةِ : الْإِسْلَامُ

بقلم أَمْهُدْ مُحَمَّدْ حَمَال

استاذ الثقافة الإسلامية بجامعة
الملك عبد العزيز بجدة

والعرب منذ اواخر العصر الجاهلي مهتمون
بلغتهم معتزون بتراثها الادبي وقد قيل (الشعر ديوان
العرب) ولكن اهتمامهم واعتزاذهم بها ازداد مع ظهور
الاسلام لأن الله عز وجل اختارها لغة لدینه قرآن
وستة وعشادة وتشريعها وسيأتي تفصيل ذلك فيما بعد
ثم تضاعف الاهتمام والاعتزاذه باللغة العربية وحفظ
التراث اللغوي وتنقيته من الدخيل الاجنبي اثناء
الفتوحات الاسلامية وبعدها وعلى الرغم من ان
الاستعمار العربي كان يعلم لهم اللغة العربية بحسب ايانها
لسان الدين الاسلامي الذي ما يزال يحاول هدمه بالدعوة
الي استخدام المهجات العامية لغة للتاليف والكتابة كما
فعل اللورد (دفرين) السياسي البريطاني حين طالب
بتدوين العلوم باللغة العامية المصرية وكما حاول
المستعمرون الفرنسيون في الجزائر الا ان هذه الدعوات
والمحاولات الاستعمارية قد باءت بالخيبة والفشل .

وليس ادل على خطأ هذه الدعوات والمحاولات
وخداعها وافترائها - وان صدرت احيانا من بعض
الكتاب العرب من رأى الكاتب الانجليزي (هكلى)
الذى قال ان كتابة العلوم والاداب باللغة العامية
يضعف الواهب العلمية ويقضى على ملكة الائمة
الفصحي لذلك ينبغي ان نرقى بمقول العامة الى فهم

ان الواقع التاريخي للغة العربية وللدين الاسلامي
- خلال اربعة عشر قرنا - يثبت حقيقة التلازم
والارتباط بين انتشار كل منهما وازدهاره بمساعدة
الآخر .

هذا الى جانب حقيقة اخرى واضحة وثابتة
وهي ان في كل من الدين الاسلامي واللغة العربية من
القوة الذاتية والاستعداد الاصيل ما يكفل له النبلة
والانتصار .

فاللغة العربية - ذاتها - لغة حية ادت رسالتها
في الحياة خير اداء وعبرت في عصورها الاولى عن
 حاجات المجتمعات التي تتحذها لغة لها تعبير بها عن
مطالبها وألامها وعلومها وأدابها وفنونها وما زالت
مستعدة للتعبير عن الحياة وما جد فيها ومستعدة ان
تسع اكثر من ذى قبل لكل جديد متذكر ومحترع
حديث كما يقول الاستاذ احمد عبد الفبور عطار
في كتابه (الفصحي والعامية) .

واللغة العربية - ايضا - من اغنى لغات البشر
ثروة لفظية تستوعب حاجات الامة الحسية والمعنوية
كما يقول الاستاذ مصطفى السقا في مقدمة كتاب
(المعجم العربي) للدكتور حسين نصار .

الفاظا والعلم بها عند العرب كالمعلم بالسنن عند اهل الفقه) .

ويقول الاذهري في مقدمته «ان تعلم العربية التي يتوصل بها الى تعلم ما تجزيء به الصلاة من تنزيل وذكر فرض على عامة المسلمين وان على الخاصة التي تقوم بكفاية العامة فيما يحتاجون اليه لدينهم الاجتهداد في تعلم لسان العرب ولغاتها التي بها التسowell الى نعارة ما في الكتاب (القرآن) ثم في السنة والآثار واقواع اهل التفسير من الصحابة والتابعين من الانفاظ الفريبة فان الجهل بذلك جهل بجملة علم الكتاب الخ

ثم يذكر الاذهري من اسباب قيامه بتأليف كتابه النصيحة الواجبة على اهل العلم لجماعة المسلمين كما جاء بها التوجيه النبوى (الدين النصيحة) اي ان دينه حمله على ان يضع كتابه في اللغة العربية لافادة الناس ما يحتاجون اليه والدفاع عن لغة العرب التي جاء بها القرآن وجاءت بها السنن والآثار .

ويقول الاستاذ العقاد رحمة الله في مقدمة كتاب (الصحاح) للأستاذ العطار (ولقد قيل كثيرة ان اللغة العربية بقيت لأنها لغة القرآن وهو قول صحيح لا ريب فيه ولكن القرآن الكريم إنما أبقى اللغة لأن الاسلام دين الإنسانية قاطبة وليس بالدين المقصور على شعب او قبيل وقد ماتت العبرية وهي لغة دينية او لغة كتاب يدين به قومه ولم تمت العبرية إلا لأنها فقدت المرونة التي تجعلها لغة إنسانية وتخرجها من حظيرة العصبية الضيقة بحيث وضعها ابناؤها منذ قرون

ثم يضيف الاستاذ العقاد (ان هذه الفضيلة الإنسانية التي لا تفرق بين العربي والاعجمي ولا بين القرشى والحبشى لهى التي انھست لخدمة اللغة اناسا من الاعاجم غاروا عليها من حيف الاعجمية - اي انهم غاروا عليها من لغة امهاتهم وآبائهم لأنها لغتهم على المساواة بينهم وبين جميع المؤمنين بالقرآن الكريم كتاب الاسلام

وستبقى اللغة العربية ما دام لها انصار يريدون لها البقاء ولم ينقطع انصارها في عصرنا الحاضر بل نراهم بحمد الله يزدادون ويتجاوزون ويتفقىءون في البلاد المختلفة على خدمتها ودعمها لأنهم مختلفون بموقع البلاد متلقون بمقاصد الضمائرة والآلية والانكشار

لغة العلم والادب العالية لا ان ننزل بالعلماء والادباء الى مستوى العامة ونتنقل الان الى الحديث عن اثر الاسلام في انتشار اللغة العربية وسفرى اقوال بعض ائمة اللغة والادب مختصرة عن حقيقة التلازم القوى بين انتشار الاسلام بالعربية وانتشار العربية بالاسلام .

ونبدأ بالازهري الامام اللغوى المشهور فهو يقول في مقدمة كتابه (تهذيب اللغة) : « الحمد لله على ما اسبغ علينا من نعمه الظاهرة والباطنة وهدايانا الى تدبر تنزيله والتفكير في آياته والإيمان بمحكمه ومشابهاته والبحث عن معانيه والفحص عن اللغة العربية التي نزل بها الكتاب والاهتداء بما شرع فيه ودعا الخلق اليه واوضح الصراط المستقيم به وهداهم الى ما فضلنا به على كثير من اهل هذا العصر فى معرفة لغات العرب التي نزل بها القرآن ووردت سنة المصطفى النبي المرتضى عليه السلام » .

هذا النص من مقدمة (التهذيب) لاحد ائمة اللغة الاعلام كاف لان نبين الباعث الاساسي على الاهتمام باللغة العربية وتدوينها وتصحيحها الا وهو (الاسلام) فرآنا وسنة وعبادة وتشريعنا .

والقرآن نفسه قبل كلام الاذهري وامثاله من علماء اللغة يؤكّد حقيقة هذا الباعث الاساسي للاهتمام باللغة العربية والاعتزاز بتراثها العلمي والادبي .

فقد من الله تبارك وتعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم وعلى العرب الذين بعث فيهم ومنهم بقوله عز وجل (انا انزلناه قرآننا عربينا لعلكم تعقلون) وقوله (لقد انزلنا اليكم كتابا فيه ذكركم افلأ تعقلون) وقوله (وانه لذكر لك ولقومك وسوف تسألون) وقوله سبحانه (وانزلنا اليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل اليهم ولعلمهم يتفكرون) الخ

فنزول القرآن الكريم بالعربية - كما يتضح من آيات القرآن نفسه - دليل اهميتها وفضليتها وباعت نهضتها وصاحب الفضل الاكبر والاثر الظاهر في نشرها وخلودها وهي - ايضا - لأنها اغنى اللغات بيانا واقواها برهانا كانت ولا تزال عاملا مساعدا لنشر الاسلام والاقبال عليه ويكفي دليلا على ذلك اختيار الله لها اسانا لدینه العام والآخر وهو الاسلام ومنته بذلك على العرب خاصة وال المسلمين عامة .

وقد روى عن الامام الشافعى رضى الله عنه انه قال (لسان العرب اوسع الالسنة مذهبها واكثرها

والحديث والفقه والاسواع والنحو والرياضيات والمنطق والكلام (والفلسفة الخ . .)

نكتفى بهذه الآراء والنظريات لأنّة اللغة والادب قدّيماً وحدّيّنا كحجّة على مدى التلازم والارتباط بين انتشار الاسلام بالعربية وانتشار العربية بالاسلام اذ هي لسانه المبين وهو روحها النفاد .

اما الاسئلة الجاذبة الملحة بالاستفتاء فنجيب عنها بایجاز .

1 - ان الوعي الاسلامي والوازع الديني لا يقوّيان او يضعفان تبعاً لضعف لغة الصاد او قوتها بل يقوّيان او يضعفان بعوامل اجتماعية وثقافية وتربوية ايجاباً وسلباً .

2 - الملاحظ ان للتفكير الاسلامي عن طريق لغة القرآن تأثيراً كبيراً في السنة غير العرب من المسلمين فهم يحاولون في اعتقادهم ان يقلدوا العرب في لغتهم وانكارهم وسلوكياتهم ويررون في العرب ولسانهم قدوة حسنة لأن القرآن نزل عليهم وبلغتهم .

3 - اللغة العربية يجب ان تحتل المكانة الاولى في كل بلد اسلامي بصفة عامة وفي كافة البلاد العربية بصفة خاصة وفي بلدي منزل القرآن وموالده الرسول ومهد الوحي بصفة اخص .

ان المقاد يعنى بما قدم ان انسانية الاسلام وعالمية تشریعه الحكيم هي التي ساعدت على انتشار اللغة العربية التي هي لغة كتابه (القرآن) الذي وحد في المؤمنين به (مقاصد) الضمائر واللسنة والافكار على الرغم من اختلافهم في موقع البلاد . ويقول الدكتور حسين نصار في كتابه (المجم المغربي) : «لم تنه اللغة العربية بانهيار الدولة الاموية وذلك بفضل القرآن الذي احاط العربية بهالة من القدسية والجلال غمرت كل مسلم مهما كان جنسه ومهما كانت لغته فاستمرت حية توارثها السنة جيل بعد جيل وان السبب المباشر الذي اظهر الدراسات اللغوية هو ارتباطها بالدراسات الدينية واتحادها في الشاعة فقد انزل القرآن كتاب العربية الاعظم على الرسول العربي الكريم ليدعوه الى سبيل الرشاد فكان يلقي لهم وعلى اساليب كلامهم .

(وكان الرسول صلى الله عليه وسلم ثم الصحابة من بعده المرجع في تفسير القرآن ثم جاءت الحركة العلمية الاولى عند المسلمين التي شملت في مدة وجيزة جميع العلوم التي عرفها العالم القديم فما اتصل بالقرآن كان اولها ظهوراً حيث ظهرت كتب (غريب القرآن) ثم كتب (غريب الحديث) وكان آخر الظواهر التي امتدت الدراسات اللغوية بالروايات ظاهرة التدوين العلمي حيث وضعت معظم العلوم العربية في اواخر المصر الاموى وأوائل المهد العباسي كعلوم القرآن

- ارى انه تبعاً لانتشار الاسلام وتنشر اللغة العربية التي انزل بها نظراً لكثرة التالين او الحافظين للقرآن بين المسلمين .
- هناك علاقة متينة حتمية بين الاسلام واللغة ولكن انتشاره لا يتوقف على اللغة لأن عوامل الانتشار والتوسع كامنة في مبادئه وقواعده .
- تأثير الفكر الاسلامي الى حد كبير بلغة القراءان العربية وتقدم تبعاً لتقديرها ، وقد ظهر اثر ذلك حتى لدى الجاليات الاسلامية الموجودة خارج المنطقة العربية والوطن الاسلامي .
- اثارت اللهجات الاقليمية في العربية في بعض الاقطارات غير العربية كالفارسية والقبطية والهنديّة والاندونيسية والماليزية وغيرها .
- كل المسلمين وفي ضمنهم الجزرية العربية موقنون بوجوب الرفع من مستوى العربية واحاطتها بهالة من الاجلال والتقدیر وجعلها تفوق غيرها من اللغات اعتباراً لما فيها المجيد وتقديرها لما اسدته للحضارة العالمية كلها من خدمات جلی .

الاستاذ سعيد مندوس
المملكة العربية السعودية